الفراسة

ومدى تأثيرها في الأحكام

للأستاذ عبد القادر مصطفى المراغي بك

خلق الله عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد . وجعل من الآيات الدالة على وجوده وكامل قدرته وعظيم حكمته . التفاوت بين أفراد كل جنس من هذه الاجناس ، وتلك آية ناطقة بوحدانيته .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقد خص عالم الانسان من بين هذه العوالم بالتفاوت بين أفراده في الغرائز والاحساسات والشعور والوجدانات والذكاء والغباء والفطنة والبله تفاوتا يبدو واضحاً جليًّا في التصرفات والافعال والاقوال وغير ذلك من شئون الحياة . ومن أجل هذا اشتهر في القديم والحديث أفراد بالدهاء والمكر وأفراد بالبلاهة ونقص العقل ، كما اشتهر أفراد بالغي في القول وآخرون بالفصاحة والبلاغة فعدوا مقاويل العرب ؛ واشتهر بعض الناس بالفراسة والأدلعية فكانت نظراتهم مفاتيح علوم بواطن النفوس وما تكنه الصدور وما تخشاه القلوب حتى قيل في وصف بعضهم :

الألمعي الذي يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

وتوسع الباحثون في الفراسة وآثارها في المجتمع وفي معرفة حقائق الأشياء فبعضهم يعرّف علم الفراسة بأنه علم نعرف به أخلاق الانسان من النظر الى شكل أعضائه . وقد تحدث العرب عن هذا العلم واعتمدت عليه في حكمها على الأشياء والأخلاق فهي تعرّفه بأنه الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن . ولم يكن العرب أول من تفطن لهذا العلم وتناخدمه في الكشف عن مغيبات الأمور ؛ إذ عثر الباحثون من علماء الآثار المصرية على ان الفراعنة كانت لهم دراية بهذا العلم وعنايتهم تلمح بهذه الميزة التي امتاز بها

الانسان . كما ان اليونانيين وعلى رأسهم أقراط قد تلمسّه لهذا العلم، بل ان طبيبهم جالينوس قد كتب فيه فصولاً طوالاً . وقد تناول هذا العلم وتمايز عن غيره من العلوم المشابهة له والرد بالتأليف أرسطو ، ولاحظ رباطاً بين الاعضاء الجسدية الظاهرة وبين الذكاء والقساوة والذكاء والغباء ... بل ذهب الى أبعد من ذلك فزعم أن الملامح والألوان والشامات المختلفة والشعر والصوت امارات تكشف عن أسرار في أفراد الانسان . فالذكر الذكية مهما بالغ في دهائه لبخفي مكره فلا بد أن يبدو من قوله أو فعله ما يكشف للمتفرس سره وهذا ما وصفه الشاعر إذ يقول . .

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومهما يكن من امر علم الفراسة وعلومه المضاضة ومقالاته الطوال فنحن بسبيل أن ننظر الى الفراسة من جهة امكانها لمن يتصدى للحكم في المسائل العويصة التي يعرضها عليه الخصوم . فقد رأينا حذاق الحكام ، والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والامارات فاذا ظهرت أمامهم الحقيقة ناصعة جلية اصدروا أحكامهم وفقاً لها . فها هو ذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتته امرأة فشكرت عنده زوجها وقالت : « هو من خير أهل الدنيا يقوم الليل حتى الصباح ويصوم النهار حتى يمسي » ثم أدركها الحياء فقال « جزاك الله خيراً فقد أحسنت إليها » ثم ولت هذه المرأة بعد أن حمدها عمر رضي الله عنه وشكر لها ما حفظته لزوجها من الوفاء . وكان كعب بن سور حاضراً هذا المجلس فأدرك بفراسته ما تريد هذه المرأة ان تبثه من شكوى وما يسوؤها من صنيع زوجها فقال لأمير المؤمنين : « لقد أبلغت إليك في الشكوى » فقال أمير المؤمنين « وما اشتكت ؟ قال كعب : اشتكت زوجها . قال أمير المؤمنين : علي بها وأمر باستحضار زوجها . وقال لكعب : اقض بينهما قال كعب : اقضي وأنت شاهد ؟ . قال أمير المؤمنين : انك قد فطنت الى ما لم أفطن له . قال كعب : إن الله يقول « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . وخاطب زوجها قائلاً : صم ثلاثة أيام وافطر عندها يوماً وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة . فقال أمير المؤمنين : هذا أعجب من الأول ثم بعث كعباً قاضياً لأهل البصرة فكان قضاؤه مضرب المثل وحط الاوزار وفراسته شأو عظيم وطار صيته واشتهر أمره بالبصرة حتى أرهب الخصوم الذين يدلون بخصوماتهم الباطلة الى الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم .

ومن القضاة الذين شهروا بالفطنة والفراسة القاضي شريح بن الحارث الكندي الذي استقضاه عمر عن الكوفة كما استقضاه عثمان ومن بعده مكث في القضاء زمناً لا يعلم ان

قاضياً بعده ولى القضاء مدة تزيد على مدته حتى قيل ان مدة قضائه بلغت خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها عن القضاء إلا ثلاث سنين اعتزل فيها القضاء أيام فتنة ابن الزبير. وكانت له أفضية لبغه فيها بصر ببواطن الأمور ونفاذ الى خبايا النفوس، فقد روى عن الشعبي انه قال: «جاءت امرأة تخاصم رجلاً، فأرسلت عينيها تبكي فقلت يا أبا أمية ما أظن هذه المرأة إلا مظلومة فقال شريح يا شعبي إن اخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون. فقلت شريح ان البكاء كثيراً ما يكون اصطناعاً وان الواقع كثيراً ما يخالف الظاهر وان الطبيعة البشرية قادرة على الخداع واخفاء الحقائق والتظاهر بما يستر الحقيقة ويضع بينها وبين الناظر إليها حجاباً كثيفاً لا يخترقه إلا النظر الصائب والبصيرة المستنيرة.

ومن تمرس بالقضاء ونبغ فيه وحاز قصب السبق: القاضي إياس وهو أبو واثلة اياس بن معاوية بن قرة قاضي عمر بن عبد العزيز أعدل خلفاء بني أمية وقد وصف اياس بالبلاغة والألمعية والفطنة والذكاء والفطانة حتى ضرب به المثل وقد عناه الحريري في مقاماته اذ يقول «فاذا ألمعيّ المعية ابن عباس وفراستي فراسة إياس». وأشاد به أبو تمام في قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء اياس

ومن الفراسة النادرة المحفوظة عن اياس ما قال ابراهيم بن مرزوق البصري: «كنا عند اياس بن معاوية قبل أن يستقضى وكنا نكتب عنه الفراسة كما نكتب الحديث عن المحدثين فجاء رجل فجلس على دكان مرتفع بالمربد «مكان معروف بالبصرة يجتمع فيه الناس»، وجعل يترصد الطريق وبينما هو يترصد نزل فجأة فاستقبل رجلاً فنظر الى وجهه ثم رجع الى موضعه، فقال القاضي اياس: قولوا في هذا الرجل. قالوا ما نقول؟ رجل طالب حاجة. فقال اياس: هو معلم صبيان قد ابق له غلام أعور. فقام بعضنا الى الرجل وسأله عن حاجته فقال: لي غلام ابق. قالوا وما صفته. قال كذا وكذا وأحدى عينيه ذاهبة. قلنا: وما صنعتك؟ قال: أعلم الصبيان. فقلنا لا بأس كيف علمت ذلك؟ قال: رأيته جاء فطلب موضعاً يجلس فيه فنظر الى أرفع شيء يقدر عليه فجلس عليه فنظرت في صورته فاذا ليس قدره قدر الملوك فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم الا المعلمين فعلمت أنه يعلم صبياناً. فقلنا كيف علمت أنه ابق له غلام؟ قال: اني رأيته يترصد الطريق ينظر في وجوه الناس. قلنا كيف علمت أنه أعور؟ قال: بينما هو كذلك اذ نزل فاستقبل رجلاً قد ذهبت إحدى عينيه فعلمت انه يشبهه بغلامه.

أي فطانة رأي ذكاء يسمو الى هذه الفطنة وهذا الذكاء.

وبهذه وغيره من ضروب الألمعية استحق المتفرسون مكانتهم في المجتمع فأثروا فيه تأثيراً بليغاً وأدوا له خدمات جلى ومنافع عظيمة